القسم السابع
صقلية الاسلامية
تحت الحكم المسيحي النرماني

رجار الثاني — كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تاثروا ايما تاثر بمدنية المسلمين المغلوبين ؛ وكان اختلاط العنصرين في المدن والقرى والبوادى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لتآلفهم البديع .

لقد نشأت في هاتيك الاصقاع ، منذ انتهاء عصر الفتح ، وموت الملك الفاتح رجار الاول مدنية جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كأن المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسي بهاتيك الديار وضعفت عصبيتهم عن مزاولة الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم في منازعاتهم الداخيلة آخر ايام ملكهم وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت حماية النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المباني الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدرات مما لا تزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية .

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

«سلك طريق ملوك المسلمين من الحبائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ؛ وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده واكرم المسلمين

وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه » .

قال غوستاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية الاسلامية النرمانية : (ص ٣١٦)

« كانت مدنية العرب لا تزال زاهية زاهرة بصقلية عندما اتم النرمان فتحها ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع الرسول ، فاقتبسوا عنهم النظم والتراتيب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ؛ وبذلك اتاحوا للبلاد عصر رفاهيه دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين ابعدوا العرب خارج صقلية .

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا (ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هوالذي يكفل الحكم الصالح للجميع وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته بصفة فعالة .

ولقد سلك خليفته غليوم (١) خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد فى المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ؛ واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم في بالرمة حارات فسيحة ومساجد ضخمة وائمة وقاض يفصل ما شجر بينهم وبفضلهم كان بلاط ملوك النرمان زاهراً كثير التألق حتى امكن للمؤرخ ابي الفداء ان يقول عنه ، بانه كان يضاهي بلاط الخلفاء في بغداد والقاهرة . »

يقول الشريف الادريسي الصقلي في كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق

---

(١) يدعوه مؤرخو القرون الوسطى الافرنج « غليوم الخبيث » وذلك لميله للمسلمين واخذه بايديهم واعتماده فى المهمات عليهم .

الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ماسبق الملك المعظم رجار المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبردة وايطاليا وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان في ملته بدين العدل ؛ واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ؛ وقام باسباب مملكته احسن قيام ، واجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام . الخ

ملوك النرمان الذين تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صبيا تحت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور الالمانى هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم وامه واخوته للاسر فسمل اعينهم وحبسهم فى قلعة حتى لاقوا حتفهم .

(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد في المهمات عليهم .

(٢) هو ابن غير شرعي لرجار الثانى ؛ وفى ايامه تدخل الامبراطور هنري الرابع الالماني فى امر صقلية وضرب على ايدي النرمان والمسلمين معا .

النفوذ الاسلامى بصقلية

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره، فى كتابه «غارات العرب» عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين في صقلية :

«انتهى امر الاستيلاء العربى بجزيرة صقلية ؛ لكن الحياة العربية قد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ؛ والملك رجار الثاني الذى استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثانى قد نفذوا جميعاً ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهم ولغتهم وديانتهم .

ثم ان ملوك النرمان قداستخدموا المسلمين ضمن جنودهم ؛ وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يومئذ مدناً اسلامية (١) سائر نظمها البلدية والعرفية والصناعية وفتحوا في وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها، أما علماء المسلمين ورجال الادب فكثير منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة في بلاط الملوك .

اما بالنسبة لسائر الرعايا المسلمين فقد كان ملوك النرمان امراء معتنقين الدين المسيحي ؛ ويقول عمارى ان الامبراطور فريدريك الثانى كان كما كان رجار الثاني قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهم الا تدينه بالمسيحية .

.... ولقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الادبية العربية امداً طويلا وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة هوهانستوفن كهنرى الرابع وافريدريك الثانى .

«ولعلنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمى صقلية وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمى الاندلس لكننا نقول ان

---

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

فارقا جسيماً يمنعنا من هذا التنظير حيث ان المسيحيين في اسبانيا كانوا يتولون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصبين من بلادهم اما في صقلية فان النرمان انفسهم كانوا اجانب غاصبين بل كانوا فى اول امرهم مغامرين مكروهين واضطروا الاصطناع الناس بحسن السلوك فقربوا منهم المسلمين واجلوا معاملة النصارى سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

— كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبة او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد اتلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين ، اي انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا فى اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة

وان عدم وجود شهداء المسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسبيا ؛ ويقول ميكال عماري ان استشهاد وتعذيب القديس بوروكوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدى المسلمين لم يكن نتيجة تعصب ديني اسلامي بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبي الثانى الذى قاسى اهله وذوو قرابته الاهوال من جنونه .

.... لقد ازدهر التفوق الاسلامي بصقلية ازدهاراً لامعاً من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحتة وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثاراً تباهي بجمالها وجلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس لكن يالها من خيبة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اي شيء سواء معالم الدين او الحياة المدنية انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية في قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزيز والقبولاء

او كاتدرائيات بالرمة وشفالو .

... نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضة والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ؛ ونظراً لكون البلاط الملوكي النرمانى كان بلاطاً شرقيا فى نظر امراء المسيحية؛ كان ينتظر ان تحيا العربية فى هاتيك الديار حياة طويلة لكن شيئاً من ذلك لم يكن واخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى فى المدن وذلك يرجع لسببين اثنين اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا فى تنصير الناس طوعاً او كرهاً بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عمارى خلال القرن الثالث عشر »

بعد مائة عام ـ حكاية ابن جبير — فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اي بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان دخل صقلية قافلا من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكنانى الاندلسى فترك لنا وثيقة من اغرب وثائق التاريخ هي رحلته البديعة التى صور فيها تصويراً دقيقاً حالة المسلمين فى الجزيرة مع ملوك النصارى فى احرج ساعة وادق موقف اي في الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية .

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى ونقل نتف منه بنصها نعتبره تتمة لمبحثنا هذا ؛ يقول ابن جبير وهو فى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على اختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون في اكنافها والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد

احسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم : وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها .

... وليس في مسينا هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب . »

ثم حل بالرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « هي مسكن ملكهم غليام Gillaume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المحابيب وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله والمهم من اشغاله حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ومامنهم الا من له الحاشية والخول والاتباع وليس في ملوك النصارى اترف في الملك ولا انعم ولا ارفه منه وهو يتشبه في الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيباً او منجماً اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة . . . ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه : « الحمد لله شكرا لانعمه » .

« واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك

---

(١) هو غليوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت فى آخر سنة من ملكه .

ان النصرانية من الفرنجيات تقم في قصره فتعود مسلمة، يعيدها الجواري المذكورات مسلمة ، وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير امور عجيبة .

« واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ، ذعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع فى قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ورسوله من نسائه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهم .

« واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتؤجرا ، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسارى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن اليهم ، ... الفينا منهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم ، بعد تقدمة رغبة منا اليه فى ذلك ، فاحتفل في كرامتنا وبرنا ، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسه ، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسالنا عن مكة قدسها الله ، وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ، ... وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام ؟ فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله ، ونحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سراً متعلقون في ملكة كافر بالله قد وضع في اعناقنا ربقة الرق ...

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم ... فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم »

ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة ، وكثرة صادر وواردة وطوائف

النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا ، فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة في نفوس اهل الجهل ... فانتهينا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ؛ وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ؛ وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفى اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ؛ وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلي بهم الفريضة والتراويح فى هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمي بالرمة فقال :

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة باذان مسموع ؛ ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون اليه فى احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، ويحتفلون فى وقيده فى هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمي القرآن . . .

وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين ؛ فصيحات الالسن ، ملتحفات ، متنقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب

والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جاذراً وظباء

« ... وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلقمة ، وهى كبيرة متسعة فيها الاسواق والمساجدوسكانها وسكان الضياع التي فى هذا الطريق كلهم مسلمون »

ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

« وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ؛ ... وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

ابتداء امر الفتنة في الدين — مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء في مدينة اطرابنش :

« تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مععبادالصليب بها — دمرهم الله — وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك الى دواعي طواري الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ؛ وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم .

« فمنها قصة اتفقت في هذه السنين الغريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى فى حضرة ملكهم الطاغية ؛ ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس في دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في

الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ؛ ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه .

«ومن اعظم ما مني به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه اوعلى زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب الابن ولا الام للبنت سبيلا؛ فتخيل حال من مني بهذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله فى مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر في العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال ؛ حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .

زعيم المسلمين ابن حمود — قال ابن جبير : «وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم: القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير محب لأهله كثير الصنائع الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة فارتجت هذه المدينة لوصوله .

وكان في هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين ايدهم الله كادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفا على الثلاثين الف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه الموروثة عن سلفه

حتى بقي بدون مال .

«فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذلهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند وصوله الى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فاظهر لنا من باطن حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكى العيون دماً ويذيب المآ ، فمن ذلك انه قال: كنت اود لواباع انا واهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل المحمود المذكور فى نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي فى الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به » .

حادث له مغزاه الاليم — وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة الغريبه التى تملؤ النفوس لوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الدينى ، كان مقاما قد قصر امده وانتهت مدته :

«ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا الحجاج راغبا فى ان يقبل منه بنتا بكراً صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضي لها من اهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق ابيها واخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ورغبة فى الحصول في بلاد المسلمين فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بانفسهم اذا زالت هذه العلقة المقيدة عنهم .

« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها ، واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ، كما استغربنا حال الصبية صانها الله ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى » .

فريدريك الثانى

امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للالمانيين بصقلية وربوع ايطاليا؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحي ؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحي لتقوية سلطانهم المادي ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التي كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت البابوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

في تلك الاثناء فى مفتتح القرن الثالث عشر المسيحي ، تألق فى السماء الاروبي نجم جديد هو نجم الامبراطور الشاب فريدريك الثانى ، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذي كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه ، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النهائية للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ .

نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنستنسا صقلية النشأة والمسكن ، فتربى هنالك فى وسط راق رقيق الحاشية جمع الى مدنية المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقراً لسلطانه ، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين .

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالي — انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحريتهم وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية تظهر نتائجها فجمع المسلمون امرهم عند ما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على

فريدريك الصبي وخلعوا طاعة الجرمانيين واعلنوا الثورة لكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حيناً ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من الفتنة في الدين فكان على الامبراطور فريدريك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥

لكنه فكر في وسيلة تمكنه في آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء من صقلية واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة لصيرة، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة في العالم المسيحي وكان من جملة الاسباب التي حملت البابا على اعلان (كفر) فريدريك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا .

ولقد سار فريدريك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركاً في الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد نيران الفتن في بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكلون بالثائرين ويخضعونهم .

تاسيس المملكة — رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تاسيس مملكة صقلية وقد كان متشبعاً بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكانه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيباً اجمع المؤرخون على انه كان حجرة الاساس في تكوين الدول الحديثة واسس الدواوين المختصة وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التي

كانت من خصائص الملك وحده وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغريوس القاسم يعلن ان الملحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة في نظر البابا هي حرية رجال الدين خاصة .

البلاط — في القصر الملكي ببالرمة (انظر رسمه في القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك النرمان والمسلمين ؛ وجمع حوله في تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم بالالسن العربية والالمانية والطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحراً في علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا .

واذ كانت العلوم قد تضاءلت في صقلية وجنوب ايطاليا فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولي » التي كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء في مرسوم تاسيسها « ان سائر معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولي ، لكي يجد كل جائع للعلم الغذاء الذي تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطراً للهجرة في سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم . »

وبما ان « جامعة سالرنة » الطبية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على الطريقة التي اختطها العلامة التونسي الصقلي (قسطنطين)(١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لانسان ان يباشر مهنة التطبيب ما لم يكن متحصلا على اجازة تلك الجامعة .

الافكار الدينية — كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع سائر العلماء المسلمين شرقاً وغرباً ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس وما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظاً

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

لفلسفة ابن رشد ناشراً لها ومدافعاً عنها معجباً بفيلسوف الاندلس امية ابن ابي الصلت

ولقد كانت الحياة تلذ له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التى استعمر بها تلك الناحية ، وهنالك كان له قصر شرقى وخدم وحواشي وجواري حسان وهنالك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على الوتر المسيحي ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشوراً لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلطه ثلاثة من الادعياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد فى عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى موتة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛ ثم يقول ان العقل البشري لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لانسان ان يعتقد الا ما يقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النقمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيراً يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Valatzes يقول فيها : « يا لسعادة آسيا ؛ ويالسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثورة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليهم » .

في الحرب الصليبية — كان البابا يستثير العامة ورجال الدين ، واوروبا كلها ضد فريدريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقي والحرب الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه

سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبي محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ويربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فما كانت الوقائع الحربية الا فترة من الجهتين ، انتهت بعقد معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصرة ، فلم تشبع تلك الحملة نهم البابوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريدريك

لكن الامبراطور راى انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين القاليين :

يقول البابا فى منشوره « لقدجاءني الامبراطور وبين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ورايت انه على استعداد ليقوم باي عمل فى سبيل منشآتنا وتحقيق غاياتنا . »

ويقول الامبراطور فى منشوره : « لقد خاطبنى البابا بقلب مفتوح وهدأ ثائرة نفسى ، فلا اريد ان اتذكر شيئا من الماضي . »

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنسي ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون في تتبع « الكفار » والتنكيل بهم ، واحراقهم ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما .

اخراج آخر المسلمين من صقلية — اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة جماعات وافراداً ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون فى ذل ومسكنة .

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد تركت فى بلاد تونس ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عهداً مع الامبراطور يضمن للمسلمين فى بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء للنصارى فى البلاد والضاحية ؛ وبقي المسلمون

آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية :

عندما لبى ابو زكريا داعي ربه فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٦٠ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ بادروا بنقض ذلك العهد ولجوا فى طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاوعار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١) واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاخرجوا منها فى تلك السنة سائر من كان قد بقي بها من المسلمين ؛ واحلوهم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار .

موت الملك واستشهاد مسلمى نصيرة — سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اروبية مسيحية بحتة وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن لشرقيته القديمة وتلذ له السكنى فى قصره بين مسلمى نصيرة وهناك مات ودفن وله ضريح ضخم .

فلما تولى الملك شارل دانجو ، عمد الى التخلص من جموع المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين بتلك البلاد راى الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش جنده سنة ١٣٠٠ فقتلوهم ومحقوا رسمهم من الوجود ووزع ارضهم واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد ما انتهى من صقلية .

(١) لاحظ ما في اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة الوقوع فى تلك العصور المظلمة .